

السيرة - سيرة الخلفاء الرشدين - سيدنا عمر بن الخطاب - الدرس (٧-١) : حياته في الجاهلية وتبذه من الكفر إلى الإيمان

لضييلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-١-١٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

من مصادر التشريع :

أيها الأخوة، مع الدرس الأول من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه، لا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

"**فَعَلَيْكُمْ بِسْتُرِّي وَسَنَةُ الْخُلُّفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوَا عَلَيْهَا بِالْتَّوَاجِذِ**" .

(أخرجه ابن ماجة عن العرباض بن سارية في سننه)

قبل أن نمضي في الحديث عن سيرته ينبغي أن نقف وقفه قصيرة عند حقيقة أساسية، هذه الحقيقة هي أن أصول الإسلام تبدأ بالقرآن الكريم، وهو وحي السماء إلى الأرض، وتأتي سنة النبي القولية بيان وتفصيل لهذا الأصل الأول، قال تعالى:

(**بَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ**)

(سورة التحل الآية: ٤٤)

وتأتي سيرته العملية تجسيد لهم النبي عليه الصلاة والسلام لكتاب الله، وتجسيد لبيان ما في كتاب الله الكريم، بقي في أصول الإسلام أصل رابع وهو أن صاحبة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم، قد تقول: الشيخ محي الدين رضي الله عنه، وقد تذكر اسم عالم وترتضى عنه دعاء لا تقريراً، ولكن صاحبة رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، رضي الله عنهم رضا تقريريًّا، لا رضا دعائياً، إذ: هؤلاء الصحابة على كثرتهم يمثلون نماذج إيمانية كلها مقبولة، وهذا الغني، وهذا الفقير، وهذا الشيخ الكبير، وهذا الشاب الصغير، وهذا الذي نشأ في نعم لا تعد ولا تحصى، وهذا الذي هاجر، وهذا الذي مرض، وهذا الذي عمر طويلاً، وهذا الذي مات في سن الشباب، هذا الذي مات حتف نفسه، وهذا الذي مات في ساحة المعركة، هؤلاء الصحابة الذين رضي الله عنهم على كثرتهم يمثلون النماذج الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن .

لذلك نحن مع عملاق كبير من عملاقة الإسلام، والعملقة هنا عملقة إيمانية، مع عملاق كبير من المؤمنين الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام، والذين صحبوه بصدق وإخلاص، هذا

الصحابي الجليل شخصيته شخصية فذة، كلما درسنا من سيرته تكتشف لنا جوانب لم نكن نعرفها من قبل، حتى إن علماء التاريخ في شتى بقاع الأرض يحتفلون بهذا الخليفة العظيم، لأنه يمثل أحد القيم الإنسانية الخالدة، وقد سمعت أنه في بعض البلاد الغربية متحف كبير مكتوب على بابه كوف العدالة، وفي هذا المتحف نماذج من سيرة هذا الخليفة الراشد .

مكانة عمر بن الخطاب في الجاهلية :

أيها الأخوة، كان يعقد في مكة سوق عكاظ، أي مؤتمر أدباء، مؤتمر للشعراء، يتبارى الشعراء فيما بينهم، ويعرضون قصائدهم على المؤتمرين و المشاهدين، وكان شيخ كبير من شيوخ هذا المؤتمر أو هذا السوق (عكاظ) قافلاً إلى بلاده، فالتقى بمن يقول له: " هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب؟ فقال هذا الشيخ: وأي نبأ عظيم؟ قال: ذلك الرجل الأعسر اليسر، ويتسائل الشيخ قائلاً: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ قال: أجل هو، قال: ما باله يا فتى؟ قال: لقد أسلم واتبع محمداً".

إن الإنسان أحياناً يتحرك حركة لا يلتقي إليها أحد، وهناك أشخاص عظام إذا تحركوا حركة ملؤوا الدنيا بأخبارهم، فهذا الصحابي الجليل كان شديد البأس في الجاهلية، ويفيق هذا الشيخ من دهشته، ويقول: " أما والحق ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شراً " يعني رأى شخصية فذة، قوية ، مصممة، همتها عالية، والحقيقة لقد أوسعهم خيراً .

من سمات عمر بن الخطاب :

من سمات هذا الصحابي الجليل أنه كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، قالوا: " هذا الصحابي لم يخف قطُّ في حياته أبداً، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع " هذا الصحابي الجليل تنطبق عليه الآية الكريمة:

(يَزِيدُ فِي الْخُلُقِ مَا يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : ١)

علماء النفس قالوا: " هناك تسعة بالمئة من الجنس البشري متواسطو القدرات، وخمسة بالمئة متفوقو القدرات، وخمسة بالمئة أيضاً مقصرون في قدراتهم " فكان هذا الصحابي الجليل من المتفوقين .

النبي عليه الصلاة والسلام كان يدرك قيمة هذا الصحابي، قيمة هذا الرجل قبل أن يسلم ، النبي عليه الصلاة والسلام أُوتى فهماً عميقاً، وأُوتى إدراكاً دقيقاً، وأُوتى خبرة في الأشخاص، هو يدرك أن هذا الإنسان لو أسلم لخرج منه خير كثير، هذا الكلام يسوقنا إلى تعليق طريف هو أن المسلمين بعضهم عبء على الإسلام، وبعضهم الآخر الإسلام عبء عليهم، يعني يحملونه، ينهضون به، فإذا أردت أن تكون عند الله مرضياً لا تكن من يحملك الإسلام، بل كن من يحمل الإسلام، يحمله دعوة، يحمله تطبيقاً، يحمله خدمة، يحمله غيرة، يحمله نشراً، يحمله تجسيداً، شئان بين من يحمل الإسلام، وبين من يحمله الإسلام، هذا الصحابي كان لفترة زمنية من آذ أعداء الدين، من آذ أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، ولا أدل على ذلك من أنه ذهب ليقتله، ويريح الناس منه، ولكن حينما أسلم كان من أكبر المدافعين عن الدين، ومن أكبر الصحابة الذي خدموا هذا الدين، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

" اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّهِ هَذِينَ الرَّجُلِينَ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بَعْرَمَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ " .

(أخرجه الترمذى عن ابن عمر في سننه)

وهذا يقودنا مرة ثانية إلى التفوق، فلا تكن من عامة الناس، ولا تكن على هامش الحياة، ولا تكن إنساناً لا يقدم ولا يؤخر، لا ينفع ولا يضر، لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد، تفوق لأن أبواب البطولة مفتوحة لكل الناس، والنظرية التي تقول: " بأن ذكاء الإنسان محدود، وأن قدراته محدودة هذه نظرية باطلة " حل محلها نظرية أخرى، وهي أن في الإنسان قدرات كامنة إذا فجرت جاءت بالمعجزات، وأنجزت الحضارات .

جدد إيمانك .

أيها الأخوة، الشيء الذي كان متاحاً للصحابية الكرام متاح لكم أيضاً، الله هو هو، كتابه بين أيديكم، فرص الأعمال الصالحة ما أكثرها، أعمال الدعوة، أعمال الخدمة، أعمال الإنفاق، أعمال الرعاية، والقوانين التي قررتها الله هي هي، إذا أخلصت لها، وأقبلت عليه، واصطلحت معه ترى العجب العجاب، ترى العجب العجاب في سعادتك التي لم تكن تعرفها، في الطمأنينة التي كنت تقتفدها، في التوازن الذي كنت بحاجة إليه، في هذا اليسر في أعمالك الذي تلحظه بشكل صارخ، قال تعالى:

(فَإِمَّا مَنْ أَعْطَى وَآتَقَى * وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى * فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل الآية : ٧-٥)

ذكرت في درس من الدروس، أن الوعود التي وعد الله بها المؤمنين هي وعود من قبل خالق الكون، ولزوال الكون أهون على الله من ألا تقع، فإذا لم تجدها فشك في إيمانك، بل جدد إيمانك، كما قال الله عزّ وجلّ:

(فَلْرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِثْمَثٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات الآية: ٥٠)

باب البطولة مفتوح :

سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه ألا يعد خامس الخلفاء الراشدين، سيدنا صلاح الدين الأيوبي الذي رد أوروبا بأكملها ألا يعد سادس الخلفاء الراشدين، إن باب البطولة مفتوح دائمًا، ما عليك إلا أن تتحرك، وإنما أن تصدق، وإنما أن تعطي ربك كل جهدك وطاقتك، وكل قدراتك، وكل ما تملك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

(سورة البقرة الآية: ٣)

اسمعوا مني هذه الحقيقة، إذا كنت داعيًّا إلى الله عزّ وجلّ، فكلما كنت أشد صدقًا وإخلاصًا ساق الله إليك المخلصين الصادقين، وكلما كنت أقل إخلاصًا وأقل صدقًا التف حولك الأقل صدقًا وإخلاصًا، إذا أردت أن يكون حولك أناس طائعون لله عز وجل فكن أنت أسبقهم إلى طاعة الله عز وجل، لا يعقل أن تتمنى على الله أناسًا أصدق منك، أو أطوع الله منك، أو أقرب إلى الله منك، أو أشد إخلاصًا منك، كنت أقول لكم هذا الدعاء دائمًا: "اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولًا فيه رضاك التمس به أحدًا سواك، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشيني عندك، اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك".

(دعاء مأثور)

إذا بحثت عن النخبة فمعك الحق، لأن هؤلاء النخبة يقدمون الشيء الكثير بجهد يسير، لشدة إخلاصهم .

سر الفرق بين هجرة النبي وهجرة عمر :

النبي عليه الصلاة والسلام، شخص واحد، جاء الحياة وغادرها، وترك الهدى في معظم بلاد الأرض، قلب المجتمعات البشرية رأسًا على عقب، نشر الفضيلة، نشر الرحمة، نشر الهدى وهو واحد، الله عزّ وجل حاضر وناظر إليك، يقول عبد الله بن مسعود: "ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتى أسلم عمر".

لكن هذا الكلام إياكم أن تفهموه فهما آخر، أ يكون عمر أشجع من رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ لا والله، كنا إذا حمي الوطيس كنا نلوذ برسول الله عليه الصلاة والسلام، فلم يكن أحد أقرب إلى العدو منه، لكن اسمعوا هذه الحقيقة: سيدنا عمر يمثل نفسه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع، فلو لم يأخذ الحيطة، ولو لم يأخذ الأسباب لعد اقتحام الأخطار سنة، ولعد أخذ الأسباب حراماً، هذا هو الفرق، سيدنا عمر ليس مشرعاً فإن أصاب فنفسه، وإن أخطأ فعليهما، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرع، وهذا يقودنا دائماً إلى الفرق بين الحكم الشرعي والموقف النفسي، سيدنا الصديق شرب لبناً ثم علم بعد أن شربه أنه مال حرام ففقيأه، يا ترى تقدير الطعام حكم شرعي أم موقف شخصي؟ موقف شخصي يدل على شدة ورعة، سيدنا الصديق أعطى كل ماله لرسول الله عليه الصلاة والسلام، قال:

" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله " .

(ورد في الأثر)

هذا موقف يدل على أعلى درجات التضحية، هل هو حكم شرعي؟ لا، لأن معظم الناس لا يستطيعونه ، الشرع جاء مع الخط العريض، مع الأكثريّة المتوسطة لا مع الأقلية المتفوقة .

إليكم بياناً في وصف ما جاء في قوة الخطاب :

يقول بعض كتاب السير الذاتية: " في الجاهلية كانت حربه للإسلام تقاد وحدتها تعذل أذى قريش جميعها، وفي الإسلام صارت حربه للوثنية تقاد تعذل مقاومة الإسلام بأسره " حجمه كبير جداً، إذا اتجه إلى الحق بكل إمكاناته، وحينما كان يحارب هذا الدين فحربه لهذا الدين تعذل حرب قريش كلها، وحينما حارب الوثنية بعد أن أسلم حربه يعدل مقاومة الإسلام كله للوثنية . لذلك حينما يقول بعض العلماء: " هو عملاق الإسلام " وهو في الحقيقة كان عملاقاً في الشكل، كان فارع الطول، عريض المنكبين، قوي البنية، بعض كتاب السير أرادوا أن يسحبوا هذه العملاقة في جسمه إلى العملاقة في إيمانه .

الفرق بين التفوق والتطرف :

أيها الأخوة، يجب أن تعلموا أن هناك فرقاً دقيقاً بين التطرف والتفوق، الإنسان إذا تطرف خرج عن الوسط، قال تعالى:

(وَكَذِلِكَ جَعَنَّا لَمْ أَمَةً وَسَطَا)

(سورة البقرة الآية : ١٤٣)

معنى وسط غير وسط، إذا كان حرف السين ساكناً أي بمكان متوسط، تقول: هذا الرجل وسط بين رجلين، أما وسط، أي معتدل لا إلى التهور ولا إلى الجبن، لا إلى إنفاق المال إسرافاً ولا إلى منعه

تقيرأ، لا إلى الخمول المميت ولا إلى التهور المقيت، فالوسط هو الاعتدال، والحقيقة دائماً وسط بين طرفين .

فهذا الصحابي الجليل لم يكن متطرفاً بل كان متوفقاً، فكان التطرف حركة أفقية، بينما التفوق حركة عمودية، وأنا أهيب بكم أن تبتعدوا عن التطرف، وأن تقتربوا من التفوق، كلما زدت من إخلاصك، زدت من استقامتك، زدت من بذلك وتضحيتك، زدت نفسك في طلب العلم تفوقت، وكلما أخذت فرعاً من فروع الدين، وبالغت به على حساب فروع الدين الأخرى فقد وقعت بالتطرف والغلو، ونعود بالله من التطرف، ولا أكتمكم أن تاريخ المسلمين، ولا سيما في عصور التخلف، كان سلسلة مواقف متطرفة تبعتها ردود فعل متطرفة، نحن نبحث عن التفوق لا عن التطرف . وقد ذكرت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى في آياتين اثنتين ينهانا عن الغلو في الدين ، ومن أدق تعاريف الغلو في الدين: أن المغالٰ يأخذ كليّة من كليّات الدين فيجعلها الدين كله، أو يأخذ فرعاً من فروع الدين فيجعله كليّة من كليّات الدين، أو يعتقد بشخص فيرفعه فوق مقامه بكثير، هذا غلو .

إليكم هذا المثال للتوضيح :

الحقيقة سأريك مثل مبسط في الفرق الدقيق بين التطرف والتفوق، لو أن طفلاً عمره عشر سنين، نموه بشكل متوازن تفوق، أما أن تنمو بعض الخلايا نمواً عشوائياً على حساب الخلايا الأخرى فهذا صار مرضاً خطيراً، فالتطرف نمو غير طبيعي، نمو غير منضبط بجانب على حساب جانب، لكن التفوق نمو طبيعي متوازن، فالمتفوق ينمو عقله، وينمو قلبه، ويرقى عمله، فلديه توازن، أما إذا نما العقل على حساب القلب وقعنا في السفسطة، وإذا نما القلب على حساب العقل ربما وقعنا في الزندقة، وإذا نما العقل والقلب وتختلف العمل فقد ضيعنا الحياة الدنيا في القيل والقال، وإذا كان هناك في العالم الإسلامي صحوة فأخطر شيء نخشاه على هذه الصحوة التطرف لا التفوق .

قصة إسلام عمر :

في قصة إسلام هذا الخليفة أحداث مثيرة، فذات يوم لاهب كما يقول كتاب السيرة خرج هذا الرجل العملاق من داره وسيفه على عاتقه ميمماً وجهه شطر دار الأرقم حيث كان النبي عليه الصلاة والسلام، ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، وفي الطريق يلقاء نعيم بن عبد الله فيرى ملامحه تنفجر بأساً ونقاً، فيقترب من عمر، ويقول: "إلى أين يا عمر؟ فيجيبه: إلى هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آهنتها فأقتلها" سيدنا عمر ظن أن هذا الذي يعنده قد أسلم أيضاً، فقال له: "لعلك صبت، إن تكون فعلت فو اللات والعزى لأبدان بك" ونعيم يعرف تماماً أن ابن الخطاب يعني ما يقول، فينهي الحوار بعبارة تلوي زمام عمر إلى جهة

أخرى، لأنه لم يحتمل وقوعها الشديد، قال: " ألا تعلم يا عمر أن أختك وزوجها قد أسلموا وتركا دينك الذي أنت عليه؟ أخته فاطمة بنت الخطاب، إدًا: ماله ولدار الأرقام، وقد اقتحم الخطر داره وعربيه، وهكذا توجه إلى دار أخته ليساوي معها الحساب، قرع الباب قرعاً رهيباً، وقيل: " من؟ قال: عمر، أما خبّاب فسارع إلى مخبأ قصي في الدار، وأما أخت عمر وزوجها فقد استقبلاه لدى الباب يشاهما ذهول المفاجأة، ولم تنس بنت الخطاب في هذه الغمرة الداهمة الصحيفة الكريمة التي بها آيات الله فخباًتها تحت ثيابها من شدة خوفها من عمر، قال عمر: ما هذه الهينمة التي سمعت عندكم؟ (سمعت صوت قراءة) أجابا: لا شيء، إنها نجوى وأحاديث، قال لهما: سمعت أنكم صباء، قال سعيد: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ ولم يمهله عمر، فوثب عليه في عنفوانه، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه، ثم ألقاه أرضاً، جلس فوق صدره، أي أن كل الضغط النفسي الذي في عمر صبه على زوج أخته، وحينما تقدمت أخته لتدافع عنه أصابتها لطمة أدمت وجهها، عندئذ صاحت به وكأنها بوق سماوي، يا عدو الله، أتضربني على إيماني بالله الأحد؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

الموقف تغير :

هنا حصل التبدل، هنا حصلت في نفس عمر حادثة غريبة جداً، هذا الاندفاع الشديد ضد هذا الدين الجديد توقف، عندئذ قال لأخته: " هات الصحيفة التي كنتما تقرآن بها لأنظر ما فيها، وتجيبه أخته: كلا إنه لا يمسه إلا المطهرون، اذهب واغتنس وتطهر" تغير عمر، قبل قليل كان إنساناً مخيناً موظفاً للباطل ضد الحق، حينما صاحت بوجهه افعل ما أنت فاعل، إنني أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، تبدل، " ويمضي عمر ليغتنس، ويعود إلى أخته، ويأخذ الصحيفة من يديها، ويقرأ فإذا فيها:

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَعَ * إِلَى تَذْكِرَةٍ لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ
الْعُلَا * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة طه الآية: ٨-١)

ويتابع فإذا في هذه السورة:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيَهَا لِتُجْزَى كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى)

(سورة طه الآية: ١٤-١٦)

سيدنا عمر صار إنساناً آخر، عانق الصحيفة وقبلها، ونهض واقفاً، وقال: لا ينبغي لمن هذه آياته أن يكون له شريك يعبد معه، ولوبي على محمد، سيدنا خباب بن الأرت خرج من مخبئه ، وهرول صوب عمر صالحًا، أبشر يا عمر؟ فو الله لقد استجيب دعاء رسول الله لك، فهو قد سمع الدعاء:

" اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّهِ هَذِينَ الرَّجُلِينَ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ " .

(أخرجه الترمذى عن ابن عمر في سننه)

هكذا تكون التوبة :

وحينما التقى عمر بالنبي عليه الصلاة والسلام، قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله أنسنا على الحق في مماتنا ومحيانا؟ قال: بل يا عمر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حبيتم، فقال عمر: ففيم الاختفاء إذا؟ والذي بعثك بالحق لتخرون ولنخرجن معك ، بعد أن كشف له الغطاء، ورأى الحقيقة الناصعة، ودخل النور إلى قلبه، قال هذا الصحابي الجليل: والله لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان " .

لذلك يصبح التوبة ثلاثة أشياء: العلم، والحال، والعمل، فالعلم يورث حالاً، والحال يورث الندم، لكن عن العمل، قالوا: هو ثلاثة أنواع، إصلاح في الماضي، وإفلاع في الحاضر، وعزيمة في المستقبل .

ما السر في هذا الانقلاب الغريب ؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال: " أكرمهم أثقاهم ". قالوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا تَسْأَلُكَ . قال : فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ . قالوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا تَسْأَلُكَ . قال : فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ قالوا : نَعَمْ . قال : فَخَيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا " .

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح)

ما الذي حصل حتى انقلب اندفاعه اندفاعاً آخر؟ قد يقول أحدهم: أيعقل هذا؟ أيكون الإيمان بين عشية وضحاها؟ أيدخل الإيمان إلى قلب الإنسان في طرفة عين؟ فالسحرة ألم يستعن بهم فرعون ليحضروا الحق الذي جاء به موسى؟ وكيف انقلبوا فجأة من أناس يعملون لصالح الكفر إلى أناس قد آمنوا في أعلى درجات الإيمان؟ لأن فرعون حينما علم أنهم قد آمنوا مع موسى هددتهم بالقتل والصلب والتعذيب، مما زادوا عن أن قالوا له:

**(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)**

(سورة طه الآية: ٧٣-٧٢)

هل العبرة في الوصول إلى إشراقة الإيمان الزمن؟

هنا تعليق أقوله، وأرجو أن يفهم كما أريد، أحياناً الإنسان يسلك سبيلاً طويلاً جداً حتى يصل إلى الإيمان، سنوات تلو سنوات يفگر في آيات الله، وي jihad نفسه وهواء إلى أن يصل إلى إشراقة الإيمان، وأحياناً تندفع إشراقة الإيمان في قلب مؤمن في وقت قصير جداً، فما العلاقة بين هذا الأمد الطويل وبين هذا الأمد القصير؟

أيها الأخوة، الجواب دقيق جداً، في الإنسان عنصر اسمه عنصر الصدق، ولا أعني بالصدق أن تقول كلاماً يطابق الواقع، فهذا مفهوم آخر للصدق لا أعنيه إطلاقاً، الصدق الذي أريده أن تكون صادقاً مع نفسك في طلب الحقيقة، أن تكون الحقيقة غالياً عليك جداً بحيث لا تنام الليل إلى أن تصل إليها، ويستعمل بعض العلماء كلمة الصدق، للتعبير عن مدى جدية الإنسان في طلب الحقيقة، وعن مدى إصراره في طلب الحقيقة، وعن مدى اندفاعه إليها، فإذا زاد الصدق أحرق المراحل، نحن في النظام العام لا يمكن أن نعطي طالب الإجازة إلا بعد أربع سنوات في الدراسة، في بعض البلاد الراقية بالقياس المادي تعرف أن هناك أناساً متقدمين، لذلك تسمح لأحد هم أن يجتاز هذه الأعوام الأربع بثلاثة أعوام، لكن نحن ليس لدينا في النظام التعليمي إنسان في وقت قصير جداً ينال أعلى شهادة، فهذا مستحيل، لكن الله سبحانه وتعالى كما يقول بعض العلماء: " طلاق الإرادة والفعل، فإذا علم من إنسان صدقاً عالياً جداً، أعطاهم في وقت يسير ما لا يعطي الأقل صدقاً في وقت طويل " لذلك قال بعض العلماء: " المراتب العليا لا لمن سبق، ولكن لمن صدق " .

فقد تجد أحياناً شخصاً دخل إلى حلقة دينية، يقول لك: مضى علي ثالثون سنة، وحالياً مكانك، وإنسان آخر لم يمض على مجئه إلى حلقة من حلقات العلم أو حلقة من حلقات التربية أكثر من أشهر، فإذا هو يتألق تألقاً يفوق هذا الذي مضى عليه عشر سنين أو عشرين سنة، فالعبرة لمن صدق لا لمن سبق، أي أن الله رجلاً إذا أرادوا أراد، كلما ازداد صدقك رأيت ما لا يصدق، رأيت من توفيق الله، ومن إكرام الله، ومن تأييد الله، ومن نصر الله، ومن هذه القوة التي تجذب المؤمنين، وقد ورد في بعض الأحاديث: " ما أقبل عبداً على ربه إلا جعل قلوب المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة " .

من أمراض العصر :

في حياتنا المعاصرة مرض خطير، ولكن اسمه لطيف "المجاملة"، المجاملة تعني مجتمع لا يتناصح أفراده أبداً، مجتمع تسوده المصالح لا المبادئ، مجتمع كل واحد منه ينتمي إلى ذاته وإلى مكاسبه فلا يعنيه من أمر الناس شيئاً، لذلك مما يقال عن الأذكياء غير الأتقياء أنهم يملكون قدرة على التلوّن عجيبة، إن جلسوا مع زيدٍ من الناس أشعروه أنهم أقرب الناس إليه، وإن جلسوا مع عبيد أشعروه أنهم أقرب الناس إليه، وإن جلسوا مع أصحاب مبادئ معينة تمثّلوا هذه المبادئ وأثنوا عليها حتى تظنّ أنهم من أصحابها، هذه المجاملة أو هذا النفاق هو الذي يؤخّر نشر الحق .

العقل المغوب بالهوى ترجى هدايته :

إذا وجدت شخصاً لا يصلي، لا يعتقد بالدين، لكنه شهم، صاحب مروءة، صادق، قلبه رحيم، فتوقع له كلّ خير، وانتظر منه أن يكون من كبار المؤمنين، لأن هذا الخلق لا يقود صاحبه إلا إلى الإيمان، لذلك لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً قد أسلم، وكان في الجاهلية ذا أخلاق عالية، فقال عليه الصلاة والسلام:

"أسلمتَ على ما أسلفتَ منْ خَيْرٍ" .

(أخرجه مسلم عن عروة بن الزبير في الصحيح)

أخواننا الكرام، الناس في محيط ما بين أقربائهم، وفي محيط أعمالهم، وفي محيط علاقاتهم، إذا رأيتَ الشخص الصادق الأمين، صاحب المروءة الذي لا تأخذ في الله لومة لائم، إن رأيت في إسلامه تقصيرًا، أو في إيمانه تقصيرًا، فاطمئنْ بهذا، ودلّه على الله، لأنه إذا أسلم وأمن، فكلُّ هذا الخير أصبح في خدمة المسلمين .

العداوة تكون للمبدأ الذي يعتنقه الشخص وليس لذاته :

بالمناسبة عندما جاء عمير بن وهب إلى المدينة ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعه سيف مسموم، ورأه عمر، وعرف في وجهه الشر، وقاده إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: " يا رسول الله هذا عمير جاء يريد شرًا " والقصة تعرفونها، حينما أسلم عمير، ماذا قال عمر؟ قال: " والله دخل عمير إلى النبي، والخنزير أحب إلى منه، وخرج من عنده وهو أحب إلى من بعض أولادي ".

أقول لكم: إذا كان الشخص عدواً للدين فاجراً منافقاً مستهزئاً، لو رأيته تاب إلى الله، واصطلح معه، إن لم ينقلب بغضنك له محبّة فلست مؤمناً، علامـة إيمـانـك أـنـك لا تـعـادـي الأـشـخـاص بـذـواتـهـمـ، وـلـكـ تـعـادـي اـتجـاهـاتـهـمـ، فـإـذـا رـجـعـ عـنـهاـ فـهـوـ أـخـوكـ حـقـاـ، فـهـذـهـ عـلامـةـ إـيمـانـ .

هذا الصحابي له قصة طويلة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً إلى معرفتها واقتفاء معالمها، ومرة بعد مرة أرجو الله سبحانه وتعالى أن تنقلب هذه الحقائق إلى سلوك، لا أن تكون هذه الحقائق حقائق تاريخية نقرؤها لنملأ بها وقت الفراغ، عندئذ لا تقدم ولا تؤخر .

أنا أعرضت قصداً عن كل فصل نتعب في فهمه، وقد نقع في سوء الظن، نحن نحبُّ من التاريخ ما كان حافزاً لنا، ونعرض عما كان عبئاً علينا، فنحن نأخذ هذه الصفحات فلعلها تدفعنا إلى الإيمان دفعاً حثيثاً .

والحمد لله رب العالمين